جامـــعة البصـــــــــرة
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قســـــم اللغة العربيـــــة

اللسانيات الوظيفية الأصول

يميِّز مؤرِّخو الدرس اللساني داخل النظريات اللغوية المعاصرة بين قطبين رئيسين في البحث اللساني هما:

الأول: القطب الشكليّ، وهو الذي يقدِّم في تحليلاته اللغوية البنيةَ على الوظيفة، ويقف في مقاربته عند حدوده بنية اللغة (الصوتية، والصرفية والتركيبية) لا يكاد يتعداها، وهو ما لاحظناه في مدرسة بلومفيلد التوزيعية، ومدرسة تشومسكي التوليدية ، فهاتان المدرستان نظرتا إلى اللغة بوصفها أنساقاً مجردة.

الثاني: القطب الوظيفيّ، ويشدِّد هذا القطب على وظيفة الأشكال اللغوية، التي تكون شرطاً أساسياً في فهم الظاهرة اللغوية، فيكون وصف اللغات قائماً على أساس ربطها بما تؤدِّيه من وظائف داخل المجتمعات البشرية، انطلاقاً من تبعية البنية إلى الوظيفة، ويدخل في إطار هذا التوجّه عددٌ من المدارس اللسانية، منها مدرسة براغ، ومدرسة لندن وغيرهما

ماذا تعد الوظيفية

وتعدُّ الوظيفيةُ الاتجاه اللساني الثالث بعد الوصفية والتوليدية، وهي نظريةٌ لغويةٌ تركِّز على وظائف الوحدات اللسانية لا على أشكالها، مستندة إلى البعد التداولي للغة، وقد سادت حقل الدراسات اللغوية لغرض سدّ الثغرات التي لم ينتبه إليها الوصفيون والتوليديون، وتتمثَّل هذه الثغرات في أنَّ اللسانيات الوصفية والتوليدية تتخلّف إذا تجاوز الباحثُ حدودَ المادة اللغوية إلى العناصر الخارجية المحيطة بالحدث اللغوي، مثل موقف المتكلِّم وحال المخاطَب، وغيرهما من الأمور الحافّة بالخطاب .

وتوجد ضمن الاتجاه الوظيفيّ العامِّ مدارسُ متعددة، تختلف من حيث نوعية التحليل والتركيز على التفاصيل المتعلِّقة بالظاهرة اللغوية، لكن وعلى الرغم من هذا الاختلاف، فضلا عن التباعد الزماني والثقافي بين هذه المدارس الا انه يجمعها تصورٌ واحدٌ تجاه طبيعة اللغة قوامه: أنَّ اللغة وسيلة اتصال اجتماعية، يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة .

المرتكزات

وترتكز أُصول الوظيفية على جملة من الأعمال التي أسهم في بلورتها كلٌّ من مدرسة براغ ومدرسة لندن، وأعمال اللسانيين التشيكيين المعروفة بالوجهة الوظيفية للجملة ، فقد أعطت مدرسة براغ منذ نشأتها عام ١٩٢٦م زخماً ملحوظاً لمفهوم التواصل، بوصفه وظيفةً أساسيةً في النشاط اللغوي عند الإنسان، ذلك أنَّ((وصف لسان معين في نظر لغويي براك يعني بالدرجة الأولى الكشف عن العوامل الأساس التي يلجأ إليها المتكلِّم لتحقيق التواصل اللغوي)) ، وكان ظهور هذه المدرسة مرتبطاً بجيل من اللسانيين الروس المهاجرين، وهم كلٌّ من رومان ياكبسون وكارسيفسكي وتروبتسكوي .

لقد اهتمَّ الوظيفيون – أول الأمر – بدراسة الأصوات وأولوها عناية فائقة، فقد تصوَّروا اللغة نسقاً يشتمل على أنظمة فرعية متعددة، لذلك يجب أن تنقسم دراستها على علوم فرعية، فدراسة الصوت مثلاً ترتبط بجانب الدوال اللغوية بوصفه فرعاً مستقلاً عن دراسة المدلولات، ولمَّا كان الدال في النظام اللغوي شيئاً مختلفاً عن الدال في الفعل الكلامي أصبح لزاماً على الباحث التمييز بين دراستين، تتجه إحداهما إلى دراسة النظام اللغوي وتتجه الأخرى إلى دراسة الأحداث الكلامية، من هنا ظهر التمييز بين دراسة الصوت التي تختص باللغة بوصفها نظاماً، ودراسة الصوت في الفعل الكلامي، وأطلقوا على الأولى مصطلح Phonatics، وعلى الثانية مصطلح Phonology، أي إنَّهم دعوا متأثرين بدي سوسير إلى ضرورة تمييز أصوات اللغة من أصوات الكلام، ومن هنا ظهر مفهوم الفونيم .

رواد الوظيفية

لقد أقام تروبتسكوي نظريته الصوتية على عقيدة فحواها أنَّ الفونيم ينبغي أن يُنظر إليه على أنَّه علامةٌ لغوية مهمتها حمل معنى الكلمة، وعليه إنَّ إحلال فونيم مكان فونيم آخر سيؤدِّي إلى إحداث تغيير في معنى الكلمة .

وعرفت الدراسات الصوتية تطوراً ملحوظاً على يد رومان ياكبسون، الذي يُعدُّ المنظر الحقيقيّ لمفهوم (السمات المائزة) Distindive Features، وهو مصطلحٌ يطلق على الخصائص التي تميِّز فونيماً من فونيم آخر، ويعرّف ياكبسون الفونيم بأنَّه حزمةٌ مؤلَّفة من السمات المائزة، وهذه السمات عبارة عن ملامح وصفية تتصل بنطق الفونيم، وتتمثَّل في الجهر والهمس واللثوية والأسنانية والانفجارية والاحتكاكية، وغير ذلك من السمات التي تميِّز الفونيمات من بعضها البعض، وبناءً على ذلك يكون تنوع الفونيمات واختلافها بمقدار ما تحمله من هذه الملامح التي يعتمد عليها التحليل الفونولوجيّ للأصوات .

مدرسة لندن

وتدين اللسانيات الوظيفية في نشأتها إلى ما قدَّمته مدرسةُ لندن من أفكارٍ وطروحات، فقد لاحظنا أنَّ مدرسة لندن نظرت إلى اللغة بوصفها ظاهرة بشرية متكاملة، وأنَّ دراستها في مستوياتها الجزئية (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية) تفقدها طابعها التواصلي الذي يميِّزها، فضلاً عن أنَّ مثل هذه الدراسة لا تقدِّمها في صورتها المتكاملة؛ لذلك دعت إلى الأخذ بالحسبان الأبعاد الثقافية والاجتماعية والنفسية التي تحيط بالحدث اللغوي، مطوِّرة في هذا الشأن مفهوم (سياق الحال) الذي تُدرس اللغة من خلاله في سياقها المادي والمعنوي .

بعد مدرسة لندن

وحاول عددٌ من اللسانيين منذ منتصف ستينيات القرن الماضي استثمار المفاهيم اللسانية الوظيفية التي بلورتها مدرسةُ براغ وطوَّرتها – فيما بعد – مدرسة لندن بقيادة فيرث، مؤكِّدين على مفهوم مركزي يتمثَّل فيما أسموه (ديناميكية التواصل)، فقد سعى هاليداي إلى تعميق طروحات أُستاذه فيرث من خلال تركيب جملة من الأفكار اللغوية وإعادة صياغتها في شكل متماسك، وهي أفكارٌ مأخوذةٌ من((سوسير، وهلمسليف، وماتيزوس، ومدرسة براغ، وفيرث ... ومن أفكار معاصرين أمثال: لايبوف، وبرنشنتين، وبازل)) ، مؤسِّسا ما أسماه النحو النظاميّ، وهو من أكثر الاتجاهات اللسانية تكاملا مع مدرسة لندن، ويرِّكز على مبدأ تعدُّد وظائف اللغة، الذي ينعكس على بنيتها .

عند فلاسفة اللغة

واهتمَّ عددٌ من الفلاسفة في إطار التيار الفلسفي المسمَّى بـ(فلسفة اللغة العادية) بالجوانب التداولية للغة، إذ عالجوا عدداً من الظواهر التداولية من قبيل (الإحالة) و(الأفعال اللغوية) و(الاستلزام الحواريّ)، وانتقلت المفاهيم المرتبطة بهذه الزمرة من الظواهر من طريق الاقتراض إلى حقل الدراسات اللغوية، إذ عمد عددٌ من اللسانيين إلى توظيف هذه المفاهيم في وصفهم للغات الطبيعية(Natural (Languages .

لقد اعتنى فلاسفة اللغة العادية (أوستين، وسيرل، وغرايس) بدراسة الجوانب الدلالية والتداولية للغات الطبيعية، مؤكِّدين ضرورة الاعتماد على التداول والاستعمال في عملية التحليل اللساني، ويُطلق الدارسون على هؤلاء الفلاسفة مصطلح (الوظيفيون الجدد)؛ لأنَّهم حقَّقوا بمراعاتهم مقامات القول البعد الوظيفي للغة، من هنا نعلم أنَّ مصطلح (التداولية) لا يختلف عن مصطلح (الوظيفية) من ناحية الاجراء؛ لأنَّ كليهما يُراد به دراسة اللغة في التواصل أو الاستعمال، حتى إنَّ الباحث أحمد المتوكل أكَّد أنَّه يستعمل في أبحاثه مصطلحي (تداوليّ) و(وظيفيّ) بمعنى واحد، ويقصد باللفظين حين يوردهما عند وصف نموذج لغوي ما((أنَّ هذا النموذج يعتمد ضمن أُسسه المنهجية أنَّ اللسانَ الطبيعي بنيةٌ تؤدِّي وظيفة أساسية في إتاحة التواصل داخل المجتمعات، وأنَّ بين البنية والوظيفة علاقةَ تبعية، بحيث تتحدَّد السماتُ البنيوية للعبارات اللغوية(صرف، تركيب، تنغيم) حسب الأغراض التواصلية التي تُستعمل هذه العبارات وسائل لتحقيقها)) .

عند فلاسفة اللغة

وفي أواخر السبعينيات شهد الاتجاه الوظيفيّ تطوراً واضحاً على يد اللسانيّ الهولنديّ سيمون دِكْ، الذي قدّم الصياغات الأولى والعامة للنحو الوظيفي في كتابه الصادر في العام ١٩٧٨م "Functional Grammar"، إذ أرسى فيه أُسس النحو الذي اقترحه، وقدَّم الخطوط العامة لتنظيم مكوناته، وقِيمَ منذ سنة نشر الكتاب، في إطار النحو المُقترح بعدّة دراسات تناولت ظواهر لغوية تعود للغات متباينة الأنماط، مكَّنت من تطوير النحو الوظيفيّ وإغنائه ، غير أنَّ النحو الوظيفيّ الذي اقترحه سيمون دك ((يمتاز على غيره من النظريات الوظيفية التداولية بنوعيَّة مصادره، فهو

محاولةٌ لصهر بعض مقترحات نظريات لغوية (النحو العلاقيّ Relation Grammar، نحو الأحوال Case Grammar، الوظيفية Functionalism)، ونظريات فلسفية (نظرية الأفعال اللغوية Speech Acts theory خاصة) أثبتت قيمتها في نموذج صوري مصوغ حسب مقتضيات النمذجة في التنظير اللساني)) ، فنموذج النحو الوظيفي–كما سيتضح لنا–يختلف عن المدارس الوظيفية السابقة من جهة إيمانه بإمكانية إبراز الوظيفة من خلال الاعتماد على المنطق، في حين أنَّ المدارس الوظيفية الأخرى تُحلِّل اللغة بالاعتماد على مصطلحات دلالية تدلُّ دلالة واضحة على وظيفة الجملة.

ويمكن القول أخير إنَّه قد أُقترِحَ في إطار اللسانيات الوظيفية عددٌ من النماذج اللغوية التي تختلف فيما بينها بشأن بنية النحو وتنظيم العلاقة بين مكوناته، لكنَّها على الرغم من هذا الاختلاف تؤمن بمشروعية الوظيفة، فضلاً عن أنَّها تقول بتأثير المستعملين وسياق الاستعمال في نسق اللغة.